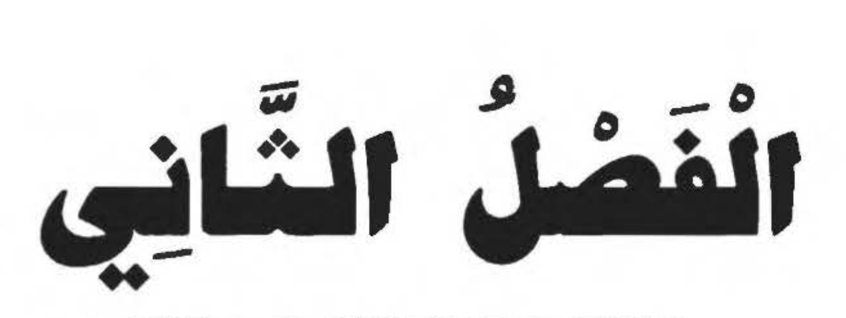


دَلَالَاتُ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ

الْفَصْـلُ الثَّانِي

دِلَالَاتُ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ

ظهرت بعض خَوَارِقِ العادات على يد بعض من ادَّعَوا المهدية، الذين وظَّفوها للترويج لدعواهم، وبالتالي انساق وراءهم كثير من العوام، وبعض الخواص، فنشأ عن ذلك كثير من الفتن، من أخطرها ادِّعَاءُ أو نسبة أولئك إلى العصمة، الأمر الذي يترتب عليه طاعة عمياء في كل ما يأمرونهم به، مما يُعَدُّ تعديًا صريحًا على مصادر التلقي، والمرجعية الشرعية.

وَخَرْقُ الْعَادَةِ أَنْوَاعٌ[1]:

١ـ **إذا اقترن بدعوى النبوة، فهو المعجزة**[2] التي يُقصد بها إظهارُ صِدْقِ مَن ادَّعى النبوة، مع عجز المنكرين عن الإتيان بمثله.

٢ـ **الإرهاص:** ما يظهر من الخوارق قبل ظهور النبي.

٣ـ **الاستدراج:** ما يظهر من خارق للعادة على يد كافرٍ أو فاسق.

٤ـ **الكرامة:** ظهور أمر خارق للعادة على يد شخص ظاهر الصلاح، غير مقارن لدعوى النبوة والرسالة.

إن التمييز بين هذه الأنواع من الخوارق من الأهمية بمكان، وبخاصة التفريق بين ضِدَّين هما الاستدراج والكرامة، وذلك لأن العوام ومن لا يحسنون العلم يربطون بين خرق العادة بمجرده وبين وَلاية الله ـ تَعَالَى ـ، فعندهم كل من خُرِقَتْ له العادة فهو ولي، ويترتب على ذلك خطأ ثانٍ، وهو الافتتان بذلك «الولي» والغلو فيه الذي يَصِلُ أحيانًا إلى ادِّعَاء عصمته.

(١) انظر: «الموسوعة الفقهية» (٣٤/٢١٦ـ ٢٢١).

(٢) والمعجزة لغةً: ما يُعجز الخصم عند التحدي.

بَيْنَ الْمُعْجِزَةِ وَالْكَرَامَةِ

مما يتعلق بتمييز الكرامة عن غيرها من خوارق العادات؛ التمييز بين الولي الذي يجوز أن تحدث له الكرامة، وبين من هو أعلى منه منزلة؛ وهو النبي، أو من يَدَّعِي مثل منزلته كذبًا وبهتانًا، وهو المُشَعْوِذُ والساحر وغيرهم.

فأما الفرق بين النبي والولي من جهة الخارق الذي يجري على يد كل منهما، فقد علمنا أن النبي تجري على يده المعجزات، وهي نوعان، سَمَّاهَا «ابن تيمية» معجزات كبرى، وهي دليل صدقه، ونوع من التوابع والنوافل سَمَّاها معجزات صغرى.

والولي تحدث على يده الكرامات، وقد تشتبه بالمعجزات الصغرى، أو تماثلها، ولكن النبي يختص بالعصمة دون الولي، فالمعجزة للنبي دليل على عصمته من الخطإ فيما أُرسِل من أجله؛ وهو التشريع.

أما الولي فكرامته إنما تدل على صدق النبي الذي آمن به هذا الولي، واتبعه في شريعته، ولا تدل بحال على عصمته هو مِن أن يخطئ في بعض أعماله، أو عباداته أو توجيهاته؛ لأنه لم يُرْسَلْ ويُصْطَفَ من الله - عَزَّ وَجَلَّ - لهذا الغرض كالنبي، وإنما هو مجتهد فيه، أما النبي فقد اصطفاه الله من عباده لهذا الغرض(١).

الْكَرَامَةُ تَدُلُّ عَلَى الْوَلَايَةِ، لَكِنَّهَا لَا تَدُلُّ عَلَى الْعِصْمَةِ

ومن هنا وجبت طاعة النبي مطلقًا، بينما لا تجب طاعة الولي مطلقًا، إلا فيما عليه دليل شرعي واضح، وفارق آخر بين المعجزة والكرامة؛ هو أن الكرامة تحدث بحسب حاجة الولي، فإذا احتاج إليها لتقوية إيمانه؛ جاءه منها ما يكفيه لتقوية إيمانه، أو احتاج إليها لفك ضيق عليه، أو على من يدعو له؛ جاءه من ذلك ما يُفَرِّجُ كربته ويجيب دعاءه، بخلاف المعجزات؛ فإنها لا تكون إلا لحاجة الخلق وهدايتهم.

---

(١) انظر «شبهات التصوف» ص (١٣٦).

ويقول شيخ الإسلام «ابن تيمية» ما نصه: «وكرامات الصالحين تدل على صحة الدين الذي جاء به الرسول، ولا تدل على أن الولي معصوم، ولا على أنه يجب طاعته في كل ما يقوله.

ومن هنا، ضل كثير من الناس من النصارى وغيرهم؛ فإن الحواريين ـ مثلًا ـ كانت لهم كرامات، كما تكون الكرامات لصالحي هذه الأمة، فظنوا أن ذلك يستلزم عصمتهم، كما يستلزم عصمة الأنبياء، فصاروا يوجبون موافقتهم في كل ما يقولون، وهذا غلط».

والحقيقة أن كثيرًا من المسلمين ـ أيضًا ـ قد وقع فيما وقع فيه النصارى من الخطإ الذي ذكره ابن تيمية، فبمجرد أن يشتهر شخص بشيء من الكرامات ترتفع درجة الثقة في أقواله، وتوجيهاته، وأوامره، ونواهيه، إلى حد أن أكثر الناس لا يقبل فيها جدلًا البتة[1].

مِنْ ضَوَابِطِ الْحُكْمِ عَلَى خَرْقِ الْعَادَةِ النَّظَرُ فِي سِيرَةِ وَاسْتِقَامَةِ مَنْ خُرِقَتْ لَهُ

وأما تمييز الولي الصادق الذي قد تجري على يديه الكرامات من الدَّعِيِّ الكاذب الذي يُمَوِّهُ على الناس ويخدعهم، فإنما يكون ذلك بحسب صلاحه وتقواه، من قيامه بالفرائض والنوافل، واتقائه الكبائر، والصغائر، واتصافه بالصفات الكريمة، واستدامته عليها، فإن اتصف شخص بكل هذه الصفات الطيبة، وعُرِفَتْ عنه، ثم حَدَثَ على يديه شيء من الخوارق فيما لا يخالف الشرع، فيجوز أن يطلق على ذلك الخارق اسم «كرامة».

أما إن كان الرجل على خلاف ذلك، مُشْتَهَرًا بالفسق والفساد والضلال، وغير

(١) «السابق» ص (١٣٦ـ ١٣٧).

ذلك، فإن كل ما يجري على يديه لا يُعْتَدُّ به بالغًا ما بلغ، والله أعلم[(١)].

مِنْ شُرُوطِ الْكَرَامَةِ

● قال الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ:

(ومن الفوائد في هذا الأصل أن يُنْظَرَ إلى كل خارقة صدرت على يدي أحد، فإن كان لها أصل في كرامات الرسول ﷺ ومعجزاته؛ فهي صحيحة، وإن لم يكن لها أصل؛ فغير صحيحة، وإن ظهر ببادئ الرأي أنها كرامة؛ إذ ليس كل ما يظهر على يدي الإنسان من الخوارق بكرامة، بل منها ما يكون كذلك، ومنها ما لا يكون كذلك.

وبيان ذلك بالمثال أن أرباب التصريف بالهمم والتقربات بالصناعة الفلكية، والأحكام النجومية، قد تصدر عنهم أفاعيل خارقة، وهي كلها ظلمات بعضها فوق بعض، ليس لها في الصحة مدخل، ولا يُوجَدُ لها في كرامات النبي ﷺ منبع؛ لأنه إن كان ذلك بدعاء مخصوص، فدعاء النبي ﷺ لم يكن على تلك النسبة، ولا تجري فيه تلك الهيئة، ولا اعتمد على قِرانٍ في الكواكب، ولا التمس سعودها أو نحوسها، بل تحرى مجرد الاعتماد على من إليه يُرْجَعُ الأمر كلُّه، والتجأ إليه، مُعْرِضًا عن الكواكب، وناهيًا عن الاستناد إليها؛ إذ قال: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ» ... الحديث[(٢)]، وإن تحَرَّى وقتًا، أو دعا إلى تحَرِّيه، فلسبب بريء من هذا كله؛ كحديث التنزل[(٣)]، وحديث اجتماع الملائكة طرفي النهار[(٤)]، وأشباه ذلك) إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: «وهذا الموضع مَزَلَّة قدم للعوامِّ، ولكثير من الخواص؛ فَلْتَنَبَّهْ له»[(٥)].

---

(١) انظر: «موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية» ص (٢٣٦-٢٣٧)، «شبهات التصوف» ص (١٣٨).
(٢) أخرجه البخاري (٢/٣٣٣) (٨٤٦)، ومسلم (١/٨٣-٨٤) (٧١).
(٣) أخرجه البخاري (٣/٢٩) (١١٤٥)، ومسلم (١/٥٢١) (٧٥٨).
(٤) أخرجه البخاري (٢/٣٣) (٥٥)، ومسلم (١/٤٣٩) (٦٣٢).
(٥) «الموافقات» (٢/٤٤٤-٤٤٦).

خَرْقُ الْعَادَةِ بِمُجَرَّدِهِ لَا يَدُلُّ عَلَى الْوَلَايَةِ

● يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - تَعَالَى -:

(وكل من خالف شيئًا مما جاء به الرسول، مقلدًا في ذلك لمن يظن أنه وَلِيٌّ لله، فإنه بنى أمره على أنه ولي لله، وأن ولي الله لا يُخَالَفُ في شيء، ولو كان هذا الرجل من أكبر أولياء الله؛ كأكابر الصحابة، والتابعين لهم بإحسان، لم يُقْبَلْ منه ما خالف الكتاب والسنة، فكيف إذا لم يكن كذلك؟!

وتجد كثيرًا من هؤلاء عمدتهم في اعتقادِ كَوْنِهِ وليًا لله أنه قد صدر عنه مُكَاشَفَةٌ في بعض الأمور، أو بعض التصرفات الخارقة للعادة؛ مثل أن يُشِيرَ إلى شخص فيموت، أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها، أو يمشي على الماء أحيانًا، أو يملأ إبريقًا من الهواء، أو ينفق بعض الأوقات من الغيب، أو يختفي أحيانًا عن أعين الناس، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاءه، فقضى حاجته، أو يُخْبِرَ الناس بما سُرِقَ لهم، أو بحالِ غائِبٍ لهم أو مريض، أو نحو ذلك من الأمور، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي الله، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء، أو مشى على الماء، لم يُغْتَرَّ به حتى يُنْظَرَ متابعته لرسول الله ﷺ، وموافقته لأمره ونهيه.

وكرامات أولياء الله - تَعَالَى - أعظم من هذه الأمور، وهذه الأمور الخارقة للعادة - وإن كان قد يكون صاحبها وليًا لله - فقد يكون عَدُوًّا لله، فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفَّار، والمشركين، وأهل الكتاب، والمنافقين، وتكون لأهل البدع، وتكون من الشياطين، فلا يجوز أن يُظَنَّ أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولي لله، بل يُعْتَبَرُ أولياء الله بصفاتهم، وأفعالهم، وأحوالهم التي دلَّ عليها الكتاب والسنة، ويُعْرَفُونَ بنور الإيمان والقرآن، وبحقائق الإيمان الباطنة، وشرائع الإسلام الظاهرة.

مِثَال ذلك: أن الأمور المذكورة وأمثالها، قد توجد في أشخاص، ويكون أحدهم لا

يتوضأ، ولا يصلي الصلوات المكتوبة، بل يكون مُلَابِسًا للنجاسات، معاشرًا للكلاب، يأوي إلى الحمامات، والقمامين، والمقابر، والمزابل، رائحته خبيثة، لا يتطهر الطهارة الشرعية، ولا يتنظف...)(١). اهـ.

● قال الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ:

(ومن هنا يُعْلَمُ أن كل خارقة حدثت أو تحدث إلى يوم القيامة، فلا يصح رَدُّها ولا قبولها إلا بعد عرضها على أحكام الشريعة، فإن ساغت هناك فهي صحيحة مقبولة في موضعها، وإلا لم تُقْبَلْ إلا الخوارق الصادرة على أيدي الأنبياء ـ عليهم السلام ـ؛ فإنه لا نظر فيها لأحد؛ لأنها واقعة على الصحة قطعًا؛ فلا يمكن فيها غير ذلك، ولأجل هذا حَكَمَ إبراهيم ـ عليه السلام ـ في ذبح ولده بمقتضى رؤياه، وقال له ابنه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وإنما النظر فيما انخرق من العادات على يد غير المعصوم.

وبيان عرضها أن تُفرض الخارقةُ واردة من مجاري العادات، فإن ساغ العمل بها عادة وكسبًا، ساغت في نفسها، وإلا فلا؛ كالرجل يكاشف بامرأة أو عورة، بحيث اطَّلع منها على ما لا يجوز له أن يَطَّلِعَ عليه، وإن لم يكن مقصودًا له، أو رأى أنه يدخل على فلان بيته وهو يُجَامِعُ زوجته ويراه عليها، أو يكاشف بمولود في بطن امرأة أجنبية؛ بحيث يقع بصره على بَشَرتها، أو شيء من أعضائها التي لا يسوغ النظر إليها في الحس، أو يرى صورة مكيفة مقدرة تقول له: «أنا ربك»، أو يرى ويسمع من يقول له: «قد أحللت لك المحرمات»، وما أشبه ذلك من الأمور التي لا يقبلها الحكم الشرعي على حال، ويُقَاسُ على ذلك ما سواه، وبالله التوفيق)(٢). اهـ.

---

(١) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» ص (٦١-٦٢)، وانظر: «ولاية الله والطريق إليها» ص (٢٥٢ - ٢٥٤).

(٢) «الموافقات» (٢/٤٨١-٤٨٢) بتصرف، وانظر: «مدارج السالكين» (١/٤٨-٤٩).

● وقال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ:

«خرق العادة قد يقع للزنديق بطريق الإملاء والإغواء، كما يقع للصدِّيق بطريق الكرامة والإكرام، وإنما تحصل التفرقة بينهما باتباع الكتاب والسنة»[(١)].

● وقال العلامة الشوكاني ـ رحمه الله ـ:

(ولا يجوز للولي أن يعتقد في كل ما يقع له من الواقعات والمكاشفات أن ذلك كرامة من الله ـ سبحانه ـ، فقد يكون من تلبيس الشيطان ومكره. بل الواجب عليه أن يعرض أقواله وأفعاله على الكتاب والسنة، فإن كانت موافقة لها، فهي حق، وصدق، وكرامة من الله ـ سبحانه ـ، وإن كانت مخالفة لشيء من ذلك؛ فليعلم أنه مخدوع ممكور به، قد طمع منه الشيطان؛ فلبَّس عليه)[(٢)]. اهـ.

● **وقال الدكتور تقي الدين الهلالي شيخ التوحيد والسنة في بلاد المغرب** ـ بل في كثير من بلاد العالم الإسلامي ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ: (.. ومن هذا تَعْلَمُ أن ظهور الخوارق، وما في عالم الغيب ـ ليس دليلًا على صلاح من ظهرت له تلك الخوارق، ولا على وَلَايته لله البتة؛ فإن كل مرتاضٍ رياضة روحية تظهر له الخوارق على أي دين كان، وقد سمعنا وقرأنا أن العُبَّاد الوثنيين من أهل الهند تقع لهم خوارق عظام)[(٣)]. اهـ.

(إذن، فيجب على كل مسلم التحقق من ذلك، ولا يجوز القطع بوَلَاية كل من فعل خارقًا من خوارق العادات؛ لأن الغاية من خرق العادة عند الْمُشَعْوِذِينَ: التلبيس على المسلمين في دينهم، كما كانت الشياطين تخدع المشركين، فَتَدْخُلُ في أجواف الأصنام وتصدر أصواتًا، يظنون أن أصنامهم تتحدث إليهم، أو تحركها الشياطين من مكانها، فيظنوا أنها تتحرك من تلقاء نفسها.

ولقد ذكر الشعراني أن الشيطان كان يدخل في أجواف الأصنام، والغربان،

(١) «فتح الباري» (١٢/٣٨٥).
(٢) «ولاية الله والطريق إليها» ص (٢٤٩).
(٣) نقله عنه في «الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة» ص (٤٦٦).

والعصافير، ويتكلم على ألسنتها بما شاء، حتى عُبدت من دون الله)[١].

مَنِ الْقَادِرُ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ «الْأَحْوَالِ الرَّحْمَانِيَّةِ» وَ«الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ»؟

يتمكن إبليس من الإنسان على قدر حظه من العلم، فكلما قلَّ علمه اشتد تَمكُّنُ إبليسَ منه، وكلما كثر العلم قل تَمكُّنُهُ منه؛ ولذلك لا تشتبه «الكرامة الرحمانية» بالحال «الشيطانية» إلا عند الجُهَّال، وأهل الأهواء، بخلاف أهل العلم والبصيرة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ تعَالَى ـ: (فإذا كان العبد من هؤلاء فَرَّقَ بين حال أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، كما يُفَرِّقُ الصيرفي بين الدرهم الجيد والدرهم الزيف، وكما يُفَرِّقُ من يعرف الخيل بين الفرس الجيد والفرس الرديء، وكما يُفَرِّقُ من يعرف الفروسية بين الشجاع والجبان، وكما أنه يجب الفرق بين النبي الصادق وبين المتنبي الكذَّاب، فَيُفَرِّقُ بين محمد الصادق الأمين رسول رب العالمين، وموسى، والمسيح، وغيرهم، وبين مسيلمة الكذَّاب، والأسود العنسي، وطلحة الأسدي، والحارث الدمشقي، وباباه الرومي، وغيرهم من الكذَّابين، وكذلك يُفَرِّقُ بين أولياء الله المتقين، وأولياء الشيطان الضالين)[٢]. اهـ.

● وقال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ:

«ومن العُبَّاد من يرى ضوءًا أو نورًا في السماء، فإن كان في رمضان قال: رأيت ليلة القدر، وإن كان في غيره قال: فُتِحَتْ لي أبواب السماء، وقد يتفق له الشيء الذي يطلبه، فيظن ذلك كرامة، وربما كان اختبارًا، وربما كان من خِدَعِ إبليس، والعاقل لا يُسَاكِنُ شيئًا من هذا، ولو كان كرامة»[٣].

كان أبو ميسرة فقيه المغرب يختم كل ليلة في مسجده، فرأى ليلة نورًا قد خرج من الحائط، وقال: تَمَلَّ من وجهي؛ فأنا ربك، فبصق في وجهه، وقال: «اذهب يا

(١) «الرفاعية» ص (٩٤-٩٥).
(٢) «الفرقان» ص (٦٦).
(٣) «تلبيس إبليس» ص (٥٢٩).

ملعون»(١)، فَطَفِئَ النور(٢).

[وكم اغتر قوم بما يشبه الكرامات، فقد روينا بإسنادٍ عن حسن عن أبي عمران قال: قال لي فرقد: «يا أبا عمران، قد أصبحتُ اليوم وأنا مهتم بضريبتي، وهي ستة دراهم، وقد أهلَّ الهلال وليست عندي، فدعوت، فبينما أنا أمشي على شط الفرات إذا أنا بستة دراهم، فأخذتها فوزنتها، فإذا هي ستة لا تزيد ولا تنقص»، فقال: «تَصَدَّقْ بِهَا، فإنها ليست لك»، قلت: ـ أبو عمران هو إبراهيم النخعي فقيه أهل الكوفة ـ فانظروا إلى كلام الفقهاء، وبُعد الاغترار عنهم، وكيف أخبره أنها لُقَطَة، ولم يلتفت إلى ما يُشْبِهُ الكرامة، وإنما لم يأمره بتعريفها لأن مذهب الكوفيين أنه لا يجب التعريف لما دون الدينار، وكأنه إنما أمره بالتصدُّق بها لئلا يَظُنَّ أنه قد أُكرم بأخذها وإنفاقها.

وبإسناد عن إبراهيم الخراساني أنه قال: احتجت يومًا إلى الوضوء، فإذا أنا بكوز من جوهر، وسواك من فضة، رأسه ألين من الخز، فاستكت بالسواك، وتوضأت بالماء، وتركتهما وانصرفت.

قلت: في هذه الحكاية من لا يُوثَقُ بروايته، فإن صَحَّتْ دلت على قِلَّةِ علم هذا الرجل؛ إذ لو كان يفهم الفقه علم أن استعمال السواك الفضة لا يجوز، ولكن قلَّ علمه فاستعمله، وإن ظن أنه كرامة، والله ـ تَعَالَى ـ لا يكرم بما يمنع استعماله شرعًا، إلا إن أُظْهِرَ له ذلك على سبيل الامتحان](٣).

قال القشيري: (قال إبراهيم الخوَّاص: «طَلَبْتُ الْحلال في كل شيء، حتى طلبته في صيد السمك، فأخذت قصبة، وجعلت فيها شَعْرًا، وجلست على الماء، فألقيت الشِّصَّ، فخرجت سمكة، فطرحتها على الأرض، وألقيت ثانية، فخرجت لي سمكة.

(١) لأن الله ـ تَعَالَى ـ لا يُرى في الدنيا، ونور الله ـ تَعَالَى ـ لا يقوم له شيء، ولما ظهر للجبل منه أدنى شيء ساخ الجبل وتدكدك، انظر: «مدارج السالكين» (٣/٢٢٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٥/٣٩٦).

(٣) «تلبيس إبليس» ص (٥٣٣).

إذ مِن ورائي لطمةٌ لا أدري مِن يَدِ مَن هي، ولا رأيت أحدًا، وسمعت قائلًا يقول: «أنت لم تصب رزقًا في شيء إلا أن تَعْمَدَ إلى مَنْ يذكرنا فتقتله؟»، قال إبراهيم: «فقطعت الشعر، وكسرت القصبة، وانصرفت»[١].

ولو أن هذا الصوفي تَدَبَّرَ قوله - تَعَالَى -: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ [المائدة: ٩٦]، لجزم قاطعًا بأن اللاطم لم يكن سوى إبليس؛ إذ الله لا يعاقِب على صيد ما أباحه، ولا يحرم صيد الأسماك؛ لأنها تذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فإنه ما من شيء إلا يُسَبِّحُ بحمده ويذكره، ولو تركنا ذبح الأنعام - وهي تذكر الله - تَعَالَى - أيضًا -، لم يكن لنا ما يقيم قوى الأبدان.

وذكر محمد بن أبي الفضل الهمداني المؤرخ قال: حدثني أبي قال: كان السرمقاني المقرئ يقرأ على ابن العلاف، وكان يأوي إلى المسجد بدرب الزعفراني، واتفق أن ابن العلاف رآه ذات يوم في وقت مجاعة، وقد نزل إلى دجلة، وأخذ منه أوراق الخس مما يرمي به أصحابه، وجعل يأكله، فشق ذلك عليه، وأتى إلى رئيس الرؤساء، فأخبره بحاله، فتقدم إلى غلام بالقرب إلى المسجد الذي يأوي إليه السرمقاني أن يعمل لبابه مفتاحًا من غير أن يُعْلمه، ففعل وتقدم إليه أن يحمل كل يوم ثلاثة أرطال خبزًا سميدًا، ومعها دجاجة، وحلوى سكرًا، ففعل الغلام ذلك، وكان يحمله على الدوام، فأتى السرمقاني في أول يوم فرأى ذلك مطروحًا في القبلة، ورأى الباب مغلقًا فتعجب، وقال في نفسه: هذا من الجنة، ويجب كتمانه، وأن لا أتحدث به، فإن من شروط الكرامة كتمانها[٢]، وأنشدني:

مَنْ أَطْلَعُوهُ عَلَى سِرٍّ فَبَاحَ بِهِ ... لَمْ يَأْمَنُوهُ عَلَى الْأَسْرَارِ مَا عَاشَا

فلما استوى حاله، وأخصب جسمه، سأله ابن العلاف عن سبب ذلك، وهو عارف به، وقصد المزاح معه، فأخذ يُوري ولا يصرح، ويَكْني ولا يُفْصِح، ولم يزل ابن العلاف يستخبره حتى أخبره أن الذي يجده في المسجد كرامة؛ إذ لا طريق لمخلوق

(١) «الرسالة القشيرية» ص (٨٤).

(٢) وقد قالوا: «الشأن في الكرامة إخفاؤها، وفي المعجزة إظهارها».

عليه، فقال له ابن العلاف: «يجب أن تدعو لابن المسلمة، فإنه هو الذي فعل ذلك»، فنغص عيشه بإخباره، وبانت عليه شواهد الانكسار[(١)]. اهـ.

أَمْثِلَةٌ مِنَ الأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ

● يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في شأن أصحاب الأحوال الشيطانية:

«وهؤلاء تقترن بهم الشياطين، وتنزل عليهم، فيكاشفون الناس ببعض الأمور، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر، وهم من جنس الكُهَّان والسحرة الدين تنزل عليهم الشياطين، قال ـ تعالى ـ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١ـ ٢٢٣]، وهؤلاء جميعًا ينتسبون إلى المكاشفات، وخوارق العادات، إذا لم يكونوا متبعين للرسل، فلا بد أن يكذبوا، وتكذبهم شياطينهم، ولا بد أن يكون في أعمالهم ما هو إثم وفجور؛ مثل نوع من الشرك، أو الظلم، أو الفواحش، أو الغلو، أو البدع في العبادة.

ولهذا تنزلت عليهم الشياطين، واقترنت بهم، فصاروا من أولياء الشيطان، لا من أولياء الرحمن؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾[(٢)] [الزخرف: ٣٦]».

ومن الأحوال الشيطانية حال «عبدالله بن صياد»، الذي ظهر في زمن النبي ﷺ وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدجّال، وتوقف النبي ﷺ في أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجّال، لكنه كان من جنس الكُهَّان، فقال له النبي ﷺ: «قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا» قال: «الدُّخُّ الدُّخُّ»، وقد كان خَبَأَ له سورة الدخان، فقال له النبي ﷺ: «اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ»[(٣)]، يعني إنما أنت من إخوان الكُهَّان، والكُهَّان كان يكون

(١) «تلبيس إبليس» ص (٥٣٣ـ ٥٣٤).
(٢) «الفرقان» ص (١٨ـ١٩).
(٣) رواه مسلم (٤/٢٢٤٤) (٢٩٣٠).

لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من الْمُغَيَّبَاتِ بما يَسْتَرِقُهُ من السمع، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب، كما هو في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ ـ وَهُوَ السَّحَابُ ـ فَتَذْكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ، فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ، فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُهَّانِ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِئَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ»(١) .

وهذا المسيح الدجّال الذي هو أعظم فتنةٍ تمر على البشرية في تاريخها، حتى حَذَّر جميع الأنبياء منه أُمَمَهُمْ، وحتى قال فيه النبي ﷺ : فيما رواه أبو داود عن عمران بن حصين رضي الله عنهما: «مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ، فَوَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، فَيَتَّبِعُهُ؛ مِمَّا يُبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»(٢) ، وسوف يأتي بأعظم الخوارق:ـ

فمنها: ما رواه حُذَيْفَةُ رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : «مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ، فَنَارُهُ جَنَّةٌ، وَجَنَّتُهُ نَارٌ»(٣) .

ـ **ومنها:** أنه يستعين بالشياطين؛ فقد رُوِي عن أبي أُمَامَةَ رضي الله عنه قال: «وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَقُولَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، أَتَشْهَدُ أَنِّي رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيْطَانَانِ فِي صُورَةِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، فَيَقُولَانِ: يَا بُنَيَّ اتَّبِعْهُ؛ فَإِنَّهُ رَبُّكَ»(٤) .

ـ **ومن فتنته** أنه يأمر السماء فتُمْطِرُ، والأرضَ فتُنْبِتُ، ويدعو البهائم فتتبعه، ويأمر الخرائب أن تُخْرِجَ كنوزها المدفونة فتستجيب(٥) .

ـ **ومن فتنته** أنه يقتل ذلك الشابَّ المؤمنَ فيما يظهر للناس، ثم يَدَّعِي أنه أحياه،

(١) رواه البخاري (٢٢١) (٦/٣٠٤ـ فتح).
(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٣/٨١٤) (٣٦٢٩).
(٣) رواه مسلم (٤/٢٢٤٨) (٢٩٣٤).
(٤) «ضعيف ابن ماجه» (٨٨٤) ص(٣٣٠).
(٥) انظر الحديث في «صحيح مسلم» (٤/٢٢٥٢) (٢٩٣٧).

فيقول ذلك الشابُّ: «والله ما كنت فيك أشد بصيرةً مني اليوم»[(١)].

• **يقول شيخ الإسلام في شأن أصحاب الأحوال الشيطانية:**

(وهؤلاء تأْتيهم أرواح تخاطبهم، وتتمثل لهم، وهي جن وشياطين، فيظنونها ملائكة؛ كالأرواح التي تخاطب من يعبد الكواكب والأصنام.

وكان من أول ما ظهر من هؤلاء في الإسلام: المختار بن أبي عبيد الذي أَخبر به النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في «صحيحه» عن النبي ﷺ أنه قال: «سَيَكُونُ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ»[(٢)]، وكان الكذَّابَ: المختار بن أَبي عبيد[(٣)]. والمبيرَ: الحجاج بن يوسف، فقيل لابن عمر وابن عباس: إن المختار يزعم أَنه يُنَزَّلُ إِليه، فَقَالَا: صدق، قال الله ـ تَعَالَى ـ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء].

وقال الآخر: وقيل له: إن المختار يزعم أَنه يُوحَى إِليه، فقال: قال الله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١][(٤)].

(والأسود العنسي الذي ادَّعى النبوة كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأُمور المغيَّبة، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون مِن الشياطين أَن يخبروه بما يقولون فيه، حتى أعانتهم عليه امرأته، لما تبينَّ لها كفره، فقتلوه.

وكذلك مسيلمة الكذَّاب، كان معه من الشياطين من يُخْبِرُهُ بالمغيبَّات، ويعينه على بعض الأمور.

---

(١) انظر الحديث في «صحيح البخاري» (١٣/١٠١ـ فتح)، ومسلم (٤/٢٢٥٦) (٢٩٣٨).

(٢) رواه مسلم، والمبير: المهلك.

(٣) ومن طرائف الأخبار: أن سراقة البارقي ـ وكان من ظرفاء المدينة ـ أسره رجل من أصحاب المختار هذا، فأُتي به المختار، وقال: «أسرتُ هذا»، فقال: «كذبتَ ما أسرني إلا رجل عليه ثياب بيض على فَرَسٍ أبلق»، فقال المختار: «أما إن الرجل قد عاين الملائكة، خلُّوا سبيله»، فأفلت منهم بدهائه وحسن تخلصه.

(٤) «الفرقان» ص (٨٦).

وأمثال هؤلاء كثيرون؛ مثل الحارث الدمشقي الذي خرج بالشام زمن عبدالملك بن مروان وادعى النبوة، وكانت الشياطين تُخْرج رجليه من القيد، وتمنع السلاح أن يَنْفُذَ فيه، وتُسَبِّحُ الرُّخامة إذا مسحها بيده، وكان يُرِي الناسَ رجالًا وركبانًا على خيل في الهواء، ويقول: هي الملائكة، وإنما كانوا جِنًّا، ولما أَمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم يَنْفُذْ فيه، فقال له عبدالملك: إنك لم تُسَمِّ الله، فسَمَّى اللهَ، فطعنه، فقتله[1].

وهكذا أهل الأحوال الشيطانية تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذُكِرَ عندهم ما يَطْرُدُهَا؛ مثل آية الكرسي، فإنه قد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، لما وَكَّلَهُ النبي ﷺ بحفظ زكاة الفطر، فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة، وهو يمسكه فيتوب فيطلقه، فيقول له النبي ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟»، فيقول: زعم أَنه لا يعود، فيقول: «كَذَبَكَ وَإِنَّهُ سَيَعُودُ»، فلما كان في المرة الثالثة، قال: دعني حتى أُعلِّمك ما ينفعك: إذا أَويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥] ... إلى آخرها، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تُصْبِحَ، فلما أخبر النبي ﷺ قال: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»، وأَخبره أَنه شيطان.

ولهذا إِذا قرأَها الإِنسان عند الأَحوال الشيطانية بِصِدْقٍ أَبطلتها؛ مثل من يدخل النار بحال شيطاني، أَو يحضر سماع المكاءِ والتصدية، فتنزل عليه الشياطين، وتتكلم على لسانه كلامًا لا يُعْلَمُ، وربما لا يُفْقَهُ، وربما كاشف بعض الحاضرين بما في قلبه، وربما تكلم بأَلسنة مختلفة؛ كما يتكلم الجني على لسان المصروع، والإنسان الذي حَصَلَ له الحال لا يدري بذلك، بمنزلة المصروع الذي يتخبَّطه الشيطان من المس، ولبسه، وتكلَّم على لسانه، فإِذا أَفاق لم يشعر بشيء مما قال[2]. اهـ.

(١) انظر تفصيل خبره في «تلبيس إبليس» ص (٥٢٩- ٥٣٣).
(٢) «الفرقان» ص (١٣٤- ١٣٥).

وهذه الأرواح الشيطانية هي الروح الذي يزعم صاحب «الفتوحات» أنه ألقى إليه ذلك الكتاب، ولهذا يذكر أنواعًا من الخلوات بطعام معين، وشيء معين، وهذه مما تفتح لصاحبها اتصالًا بالجن والشياطين، فيظنون ذلك من كرامات الأولياء، وإنما هو من الأحوال الشيطانية، وأعرف من هؤلاءِ عَدَدًا، ومنهم من كان يُحْمَلُ في الهواء إلى مكان بعيد ويعود، ومنهم من كان يُؤْتَى بمال مسروق، تسرقه له الشياطين وتأتيه به، ومنهم من كانت تدله على السرقات بِجُعْلٍ يحصل له من الناس، أو لعطاء يعطونه إذا دَلَّهُمْ على سرقاتهم، ونحو ذلك.

ولما كانت أحوال هؤلاءِ شيطانية، كانوا مناقضين للرسل ـ صلوات الله ـ تَعَالَى ـ وسلامه عليهم ـ، كما يُوجَدُ في كلام صاحب «الفتوحات المكية»، و«الفصوص»، وأشباه ذلك؛ يَمْدَحُ الكفارَ؛ مثل قوم نوح، وهود، وفرعون، وغيرهم، وينتقصُ الأنبياءَ؛ كنوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، ويَذُمُّ شيوخ المسلمين المحمودين عند المسلمين؛ كالجُنَيْدِ بن محمد، وسهل بن عبدالله التستري، وأمثالهما، ويَمْدَحُ المذمومين عند المسلمين؛ كالحلاج ونحوه؛ كما ذكره في تجلياته الخيالية الشيطانية(١). اهـ.

التَّفْرِيقُ بَيْنَ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ:

(وبين كرامات الأولياء، وبين ما يشبهها من الأحوال الشيطانية فروق متعددة:

منها: أن كرامات الأولياء سببها الإيمان والتقوى، والأحوال الشيطانية، سببها ما نهى الله عنه ورسوله.

وقد قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: الآية ٣٣] ، فالقول على الله بغير علم، والشرك، والظلم، والفواحش؛ قد حرَّمها الله ـ تَعَالَى ـ ورسوله، فلا تكون سببًا لكرامة الله ـ تَعَالَى ـ بالكرامات عليها،

(١) «الفرقان» ص (٨٧).

فإذا كانت لا تحصل بالصلاة، والذكر، وقراءة القرآن، بل تحصل بما يُحِبُّهُ الشيطان، وبالأُمور التي فيها شرك؛ كالاستغاثة بالمخلوقات، أَو كانت مما يُسْتَعَانُ بها على ظلم الخلق، وفعل الفواحش، فهي من الأَحوال الشيطانية(١)، لا من الكرامات الرحمانية.

ومن هؤلاءِ من إذا حضر سماع المكاءِ والتصدية يتنزَّل عليه شيطانه، حتى يَحْمِلَهُ في الهواءِ، ويخرجه من تلك الدار، فإذا حضر رجل من أَولياءِ الله ـ تَعَالَى ـ، طرد شيطانه فيسقط، كما جرى هذا لغير واحد.

ومن هؤلاءِ من يستغيث بمخلوق، إما حي أَو ميت، سواءٌ كان ذلك المخلوق مسلمًا، أَو نصرانيًّا، أَو مشركًا، فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به، ويقضي بعض حاجة ذلك المستغيث؛ فيظن أنه ذلك الشخص، أَو هو مَلَكٌ تصوَّر على صورته،

---

(١) ولا تحصل هذه الخوارق عند تلاوة القرآن الكريم، وإنما تحصل عند استعمال الآلات الموسيقية كالطبل والدف والمزامير وغيرها، وهذا دليل على أن هذه أحوال شيطانية لا إيمانية، ولذلك كان يشترط بعضهم على من يحضرهم أن لا يقرأوا قرآنًا، ولا يتكلموا بشيء البتة، وقد طلب بعض الرفاعية من أحد الشباب الانصراف عنهم حين كان يتمتم بالذكر وقراءة القرآن، مما أدى إلى جرحهم لدى إدخالهم الشيش، حتى قالوا: «إن بين الحاضرين رجلًا روحه شريرة فلينصرف عنا» وقال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله في أثناء كلامه على طائفة محمد بن عيسى «أكلة الثعابين والنار»: (وقد أحرجت واحدًا منهم، وأردته على أن يمكنني من وضع النار حيث أريد من بدنه، فلم يقبل، ثم استتبته فأظهر التوبة عن مخادعة الناس بذلك) اهـ. من «المنار» المجلد العاشر ص (٢٩٠).

وقال أيضًا رحمه الله: (إن ما يفعله الرفاعية من اقتحام النار وضرب الشيش وإدخال الحديد المحميّ في ألسنتهم وأكل الحيات والحشرات إنما هو من الشعوذة التي لا ينفردون بها عن غيرهم، بل إنها منتشرة بين كثيرين من المنتمين إلى أديان ومذاهب ونحل مختلفة وفي أفكار عديدة) اهـ كما حكاه عنه الشيخ عبدالرحمن دمشقية، ثم قال:

(وقد زعم أمامي واحد من أهل الطريقة الرفاعية أن إكرام الله لهم حاصل في كونهم يأكلون الزجاج أمام الكفار، وأنهم عاينوا الزجاج في بطنه، وتأكدوا من صحة ذلك، وأدّى ببعضهم إلى الإسلام.
فقلت: هذا من جهل أولئك بحقيقة الأمر، فإنهم لو علموا أن هذا يحدث للوثنيين والبوذيين لربما ارتدوا على أعقابهم، بل يحدث مثل ذلك أيضًا على مسارح السيرك، حيث يُدخِل الساحر الشيش في الأجساد، بل يُقَسِّم الفتاة بالسيف نصفين) اهـ. بتصرف من «الرفاعية» ص(١٠٤ ـ ١٠٥).

وإنما هو شيطان أَضلَّه لَمَّا أَشرك بالله، كما كانت الشياطين تدخل في الأَصنام، وتكلِّم المشركين، ومن هؤلاءِ من يتصوَّر له الشيطان، ويقول له: أَنا الْخَضِرُ، وربما أَخبره ببعض الأُمور، وأَعانه على بعض مطالبه، كما قد جرى ذلك لغير واحد من المسلمين، واليهود، والنصارى. وكثيرٌ من الكُفَّار بأَرض المشرق والمغرب، يموت لهم الميت، فيأْتي الشيطان بعد موته على صورته، وهم يعتقدون أَنه ذلك الميت، ويقضي الديون، ويرد الودائع، ويفعل أَشياءَ تتعلق بالميت، ويدخل إلى زوجته ويذهب، وربما يكونون قد أَحرقوا ميتهم بالنار، كما تصنع كُفَّار الهند، فيظنون أَنه عاش بعد موته، ومن هؤلاءِ شيخ كان بمصر أَوصى خادمه فقال: إذا أَنا متُّ فلا تدع أَحدًا يغسلني، فأَنا أَجيءُ وأَغسل نفسي، فلما مات رأَى خادمه شخصًا في صورته، فاعتقد أَنه هو، دخل وغسَّل نفسه، فلما قضى ذلك الداخل غسله؛ أَي غسل الميت، غاب، وكان ذلك شَيْطَانًا، وكان قد أَضلَّ الميت، وقال: إِنك بعد الموت تجيءُ فَتُغَسِّلُ نفسك، فلما مات جاءَ - أيضًا - في صورته ليغوي الأَحياءَ، كما أَغوي الميت قبل ذلك.

ومنهم من يرى عرشًا في الهواءِ، وفوقه نور، ويسمع من يخاطبه ويقول: أَنا ربك، فإن كان من أَهل المعرفة، عَلِمَ أَنه شيطان، فزجره، واستعاذ بالله منه، فيزول.

ومنهم من يرى أَشخاصًا في اليقظة يدَّعي أَحدهم أَنه نبي، أَو صِدِّيقٌ، أَو شيخٌ من الصالحين، وقد جرى هذا لغير واحد، وهؤلاء منهم من يرى ذلك عند قبر الذي يزوره، فيرى القبر قد انشق وخرج إليه صورة، فيعتقدها الميت، وإنما هو جني تصوَّر بتلك الصورة، ومنهم من يرى فارسًا قد خرج من قبره، أَو دخل في قبره، ويكون ذلك شيطانًا، **وكل من قال: إنه رأَى نَبِيًّا بعين رأَسه فما رأَى إلا خيالاً.**

ومنهم من يرى في منامه أَن بعض الأَكابر؛ إما الصدِّيق ﷺ، أَو غيره قد قصَّ شعره، أَو حلقه، أَو أَلبسه طاقيته، أَو ثوبه، فيصبح وعلى رأسه طاقية، وشعره محلوق، أَو مُقَصَّرٌ، وإنما الجن قد حَلَقُوا شعره، أَو قَصَّرُوهُ، وهذه الأَحوال الشيطانية تحصل لمن

خرج عن الكتاب والسنة، وهم درجات، والجن الذين يقترنون بهم من جنسهم وعلى مذهبهم، والجن فيهم الكافر، والفاسق، والمخطئ، فإن كان الإنسي كافرًا، أَو فاسقًا، أَو جاهلًا، دخلوا معه في الكفر، والفسوق، والضلال، وقد يعاونونه إذا وافقهم على ما يختارونه من الكفر؛ مثل الإقسام عليهم بأَسماءِ من يُعَظِّمونه من الجن وغيرهم، ومثل أَن يكتب أَسماءَ الله، أَو بعض كلامه بالنجاسة، أَو يقلب فاتحة الكتاب، أَو سورة الإخلاص، أَو آية الكرسي، أَو غيرهنَّ، ويكتبهنَّ بنجاسة، فيغوِّرون له الماءَ، وينقلونه، بسبب ما يرضيهم به من الكفر، وقد يأْتونه بمن يهواه من امرأَة أَو صبي؛ إما في الهواء، وإما مدفوعًا ملجأً إِليه، إلى أَمثال هذه الأُمور التي يطول وصفها، والإيمانُ بها إيمان بالجبت والطاغوت، والجبت: السحر، والطاغوت: الشياطين والأَصنام، وإن كان الرجل مُطِيعًا لله ورسوله باطنًا وظاهرًا؛ لم يمكنهم الدخول معه في ذلك، أَو مسالمته.

ولهذا لما كانت عبادة المسلمين المشروعة في المساجد التي هي بيوت الله، كان عُمَّار المساجد أَبعد عن الأَحوال الشيطانية، وكان أَهل الشرك والبدع، الذين يُعَظِّمُونَ القبور، ومشاهد الموتى، فيدعون الميت، أَو يدعون به، أَو يعتقدون أَن الدعاءَ عنده مستجابٌ - أَقْرَبَ إلى الأَحوال الشيطانية؛ فإنه ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أَنه قال: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

وثبت في «صحيح مسلم» عنه أَنه قال قبل أَن يموت بخمس ليال: «إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَذَاتِ يَدِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلِكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا سُدَّتْ، إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ، أَلا إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كانوا يَتَّخِذُونَ قبورَ أنبيائهم مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

وفي «الصحيحين» عنه أَنه ذُكِرَ له في مرضه كنيسة بأَرض الحبشة، وذكروا من حسنها، وتَصَاوِيرَ فيها، فقال: «أُولَئِكَ إِذَا كان فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ

مَسْجِدًا، ثم صَوَّروا تلك الصور، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(١)]. اهـ.

● وقال شيخ الإسلام ـ أيضًا ـ:

«وإنما غاية الكرامة لزوم الاستقامة[(٢)]، فلم يُكْرِمِ الله عبدًا بمثل أن يُعِينَهُ على ما يُحِبُّهُ ويرضاه، ويزيده مما يقربه إليه، ويرفع به درجته.

.. وجميع ما يؤتيه الله لعبده من هذه الأمور، إن استعان به على ما يحبه الله ويرضاه، ويُقَرِّبُهُ إليه، ويرفع درجته، ويأمره الله به ورسوله، ازداد بذلك رِفْعَةً، وقربًا إلى الله ورسوله، وعَلَتْ درجته، وإن استعان به على ما نهى الله عنه ورسوله؛ كالشرك، والظلم، والفواحش، استحق بذلك الذَّمَّ والعقاب، فإن لم يتداركه الله ـ تَعَالَى ـ بتوبة، أو حسنات مَاحِيَةٍ، وإلا كان كأمثاله من المذنبين؛ ولهذا كثيرًا ما يُعَاقَبُ أصحاب الخوارق، تارة بسلبها، كما يُعْزَلُ الملك عن ملكه، ويُسلب العَالِمُ علمه، وتارة بسلب التطوعات، فينقل من الولاية الخاصة إلى العامة، وتارة ينزل إلى درجة الفسَّاق، وتارة يرتدُّ عن الإسلام، وهذا يكون فيمن له خوارق شيطانية، فإن كثيرًا من هؤلاءِ يرتد عن الإسلام، وكثيرًا منهم لا يعرف أَن هذه شيطانية، بل يَظُنُّهَا من كرامات أَولياء الله، ويظن من يَظُنُّ منهم أَن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إذا أَعطى عبدًا خرق عادة لم يحاسبه على ذلك، كمن يظن أن الله إذا أعطى عبدًا ملكًا، ومالًا، وتصرفًا، لم يحاسبه عليه، ومنهم من يستعين بالخوارق على أُمور مباحة، لا مأْمور بها، ولا منهي عنها، فهذا يكون من عموم الأَولياء، وهم الأَبرار المقتصدون، وأَما السابقون المقربون فأَعلى من هؤلاءِ، كما أَن العبد الرسول أَعلى من النبي الملك.

ولما كانت الخوارق كثيرًا ما ينقص بها درجة الرجل، كان كثير من الصالحين يتوب

---

(١) «الفرقان» ص (١٣٦- ١٤٠).

(٢) والمريد الصادق قد تكثر له الكرامات في ابتدائه تثبيتًا له وتأنيسًا ومعونة، فإذا كمل خفت عنه أو انعدمت لعدم احتياجه إليها، ومن ثم قال الجنيد رحمه الله: «مشى قوم على الماء، ومات بالعطش من هو أفضل منهم» انظر: «زاد المسلم» (١٧٩/٣)، وقال الشاطبي رحمه الله: «وعدُّوا من رَكَنَ إلى الكرامات مستدرَجًا، من حيث كانت ابتلاءً، لا من جهة كونها آية أو نعمة» اهـ. من «الموافقات» (٥٤٩/١).

من مثل ذلك، ويستغفر الله ـ تَعَالَى ـ، كما يتوب من الذنوب؛ كالزنا، والسرقة، وتُعْرَضُ على بعضهم فيسأَل الله زوالها، وكلهم يأْمر المريد السالك أَن لا يقف عندها، ولا يجعلها همته، ولا يتبجح بها(١)، مع ظنهم أَنها كرامات، فكيف إذا كانت بالحقيقة من الشياطين تغويهم بها؟! فإني أَعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع، وإنما يُخَاطِبُهُ الشيطان الذي دخل فيها، وأَعْرِفُ من يخاطبهم الحجرُ والشجرُ، وتقول: هَنِيئًا لك يا ولي الله، فيقرأ آية الكرسي، فيذهب ذلك. وأعرف من يقصد صيد الطير، فتخاطبه العصافير وغيرها، وتقول: خذني حتى يأكلني الفقراءُ، ويكون الشيطان قد دخل فيها، كما يدخل في الإِنس، ويخاطبه بذلك، ومنهم من يكون في البيت وهو مغلق، فيرى نفسه خارجه وهو لم يفتح، وبالعكس، وكذلك في أَبواب المدينة، وتكون الجن قد أَدخلته وأَخرجته بسرعة، أَو تُرِيهِ أَنوارًا، وتحضر عنده من يطلبه، ويكون ذلك من الشياطين، يتصورون بصورة صاحبه، فإذا قرأ آية الكرسي مرة بعد مرة، ذهب ذلك كله.

وأَعرف من يخاطبه مخاطب ويقول له: أَنا من أَمر الله، ويعده بأَنه المهدي الذي بَشَرَّ به النبي ﷺ، ويُظْهِرُ له الخوارق؛ مثل أَن يخطر بقلبه تصرف في الطير، والجراد في الهواءِ، فإذا خطر بقلبه ذهاب الطير أَو الجراد يمينًا وشمالاً، ذهب حيث أَراد، وإذا خطر بقلبه قيام بعض المواشي، أَو نومُه، أَو ذَهَابُه، حصل له ما أَراد من غير حركة منه في الظاهر، وتحمله إلى مكة، وتأْتي به، وتأْتيه بأَشخاص في صورة جميلة، وتقول له: هذه الملائكة الكروبيون أَرادوا زيارتك، فيقول في نفسه: كيف تصوروا بصورة

(١) قال ابن الجوزي رحمه الله ـ تَعَالَى ـ:
(ولما علم العقلاء شدة تلبيس إبليس حذروا من أشياء ظاهرها الكرامة، وخافوا أن تكون من تلبيسه. .. وعن رابعة أنها أصبحت يومًا صائمة في يوم بارد، قالت: فنازعتني نفسي إلى شيء من الطعام السخن أفطر عليه، وكان عندي شحم، فقلت: لو كان عندي بصل أو كراث عالجته، فإذا عصفور قد جاء فسقط على المثقب في منقاره بصلة، فلما رأيته أضربت عما أردت، وخفت أن يكون من الشيطان. وبالإسناد عن محمد بن يزيد قال: كانوا يرون لوهيب أنه من أهل الجنة، فإذا أُخبر بها اشتد بكاؤه، وقال: قد خشيت أن يكون هذا من الشيطان) اهـ. من «تلبيس إبليس» ص (٥٣٥- ٥٣٦).

المردان، فيرفع رأسه فيجدهم بلحى، ويقول له: علامة أنك المهدي أنك تنبت في جسدك شامة[١]، فَتَنْبُتُ ويراها، وغير ذلك، **وكله من مكر الشيطان.**

وهذا باب واسعٌ، لو ذَكَرْتُ ما أَعرف منه لاحتاج إلى مجلد كبير. وقد قال - تَعَالَى -: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر]، قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿كَلَّا﴾، ولفظة (كلا) فيها زجر وتنبيه، زجرٌ عن مثل هذا القول، وتنبيه على ما يخبر به، ويأْمر به بعده؛ وذلك أَنه ليس كل مَنْ حصل له نِعَمٌ دنيوية تُعَدُّ كرامة، يكون الله - عَزَّ وَجَلَّ - مُكْرِمًا له بها، ولا كل من قَدَّر - أي: ضَيَّق - عليه ذلك يكون مُهِينًا له بذلك، بل هو - سبحانه - يَبْتَلِي عبده بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، فقد يعطي النعم الدنيوية لمن لا يحبه، ولا هو كريم عنده؛ ليستدرجه بذلك، وقد يحمي منها من يُحِبُّهُ ويُوَالِيهِ؛ لئلا ينقص بذلك مرتبته عنده، أَو يقع بسببها فيما يكرهه منه.

وأَيضًا كرامات الأَولياءِ لا بد أَن يكون سببها الإيمان والتقوى[٢]، فما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان، فهو من خوارق أَعداءِ الله، لا من كرامات أَولياءِ الله، فمن كانت خوارقه لا تحصل بالصلاة، والقراءَة، والذكر، وقيام الليل، والدعاءِ، وإِنما تحصل عند الشرك؛ مثل دعاءِ الميت، والغائب، أَو بالفسق، والعصيان، وأَكل المحرَّمات؛ كالحيات، والزنابير، والخنافس، والدم، وغيره من النجاسات، ومثل الغناءِ، والرقص، لا سيما مع النسوة الأَجانب، والمردان، وحالة خوارقه تنقص عند سماع القرآن، وتقوى عند سماع مزامير الشيطان، فيرقص ليلًا طويلًا، فإِذا جاءَت الصلاة صلَّى قاعدًا، أَو ينقر الصلاة نقر الديك، وهو يبغض سماع القرآن، وينفر عنه، ويتكلفه، ليس له فيه

(١) وأمر هذه «الشامة» لا يعرف له أصل في الأحاديث الصحيحة الواردة في حق المهدي، ومن الغريب أن «المهدي السوداني» عُني بأمر شامة كانت فيه، وكان يُعَوِّل عليها أحيانًا في إثبات مهديته، كما تراه ص(٤٨٢).

(٢) وقد قيل: «الكرامة تَنتجُ عن استقامةٍ، أو تُنْتِج استقامةً».

محبة، ولا ذوق، ولا لذة عند وجده، ويحب سماع المكاءِ والتصدية[(١)]، ويجد عنده مواجيد، فهذه أحوال شيطانية، وهو ممن يتناوله قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦﴾ [الزّخرُف: الآية ٣٦] .

فالقرآن هو ذكر الرحمن، قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦] يعني تركت العمل بها. ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾.

قال ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: «تكفَّل الله لمن قرأ كتابه، وعمل بما فيه، أن لا يَضِلَّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة»، ثم قرأ هذه الآية[(٢)]. اهـ.

حِيَلٌ لَا خَوَارِقُ

من الخوارق ما لا يكون بتسبب شيطاني مباشر، وإنما يكون بطريق التعلم والحيلة، كما يفعله النصارى كثيرًا، وكما كان يفعل ابن تومرت[(٣)]، وكما رُوِيَ عن الحلَّاج، من أنه (كان يدفن شيئًا من الخبز، والشواء، والحلوى في موضع من البَرِّيَّة، ويُطْلِعُ بعض أصحابه على ذلك، فإذا أصبح قال لأصحابه: «إن رأيتم أن نخرج على وجه السياحة»، فيقوم، ويمشي الناس معه، فإذا جاءوا إلى ذلك المكان، قال له صاحبه الذي أطلعه على ذلك: «نشتهي الآن كذا وكذا»، فيتركهم الحلاج، وينزوي عنهم إلى ذلك المكان، فيصلي ركعتين، ويأتيهم بذلك، وكان يمد يده إلى الهواء، ويَطْرَحُ الذهب في أيدي الناس ويُمَخْرِقُ، وقد قال له بعض الحاضرين يَوْمًا: «هذه الدراهم معروفة، ولكن

---

(١) المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق.

(٢) «الفرقان» ص (١٤٧ـ ١٥١).

(٣) انظر حيل ودجل ابن تومرت ص (٣٩٤، ٤٠١).

أؤمن بك إذا أعطيتني درهمًا عليه اسمك واسم أبيك»، وما زال يُمَخْرِقُ إلى وقت صَلْبِهِ(١).

ومن ذلك ما ذكره بعض أصحاب ابن الشَّبَّاس قال: (حضرنا يومًا عنده، فأخرج جديًا مشويًّا، فأمرنا بأكله، وأن نكسر عظمه ولا نهشمها، فلما فرغنا أمر بردها إلى التنور، وترك على التنور طبقًا، ثم رفعه بعد ساعة، فوجدنا جديًا حيًّا يرعى حشيشًا، ولم نَرَ للنار أثرًا، ولا للرمَّادِ ولا للعظام خبرًا، قال: فتلطفت حتى عرفت ذلك، وذلك أن التنور يفضي إلى سرداب، وبينهما طبق نحاس بلولب، فإذا أراد إزالة النار عنه فركه فينزل عليه فيسده وينفتح السرداب، وإذا أراد أن يظهر النار أعاد الطبق إلى فم السرداب فتراءى للناس.

● قال ابن الجوزي - رحمه الله - تَعَالَى -:

وقد رأينا في زماننا من يشير إلى الملائكة ويقول: «هؤلاء ضيف مكرمون»، يوهم أن الملائكة قد حضرت، ويقول لهم: «تقدموا إليَّ»، وأخذ رجل في زماننا إبريقًا جديدًا فترك فيه عَسَلًا، فتشرب في الخزف طعم العسل، واستصحب الإبريق في سفره، فكان إذا غرف به الماء من النهر، وسقى أصحابه وجدوا طعم العسل، وما في هؤلاء من يعرف الله، ولا يخاف في الله لومة لائم، نعوذ بالله من الخذلان(٢).

* * * * *

(١) «تلبيس إبليس» ص (٥٣٩).

(٢) «السابق» ص (٥٤١- ٥٤٢)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١١/٤٤٥، ٦١٠)، و«البداية والنهاية» (١٤/٣٦).